# سيميائيون أم مؤرخو سيميائيات
# قراءة في البعد الغائب (1)

محمد صاري
أستاذ اللسانيات بجامعة محمد الشريف مساعدية- سوق أهراس، الجزائر
m.sari@univ-soukahras.dz

تهدف المقالة إلى إجراء قراءة تقويمية للكتابة السيميائية العربية. وقد وقع اختياري على نخبة من البحوث الحديثة التي احتوتها مجلة "عالم الفكر" في عدد خاص محوره السيميائيات. حاولنا أن نكشف عن بعض الأبعاد الغائبة في المغامرة السيميائية العربية، لعل أبرزها البعد التعليمي والبعد التراثي، فضلًا عن البعدين الإجرائي والتراكمي. وقد تبين أن كل البحوث الواردة في المدونة بحوث تبشيرية؛ تُعرِّف بالأعلام والمبادئ والاتجاهات والميادين، إلخ، وتغري القارئ العربي وتمنّيه بمستقبل زاهر "لهذا الكائن غير الموجود" بتعبير مشال أريفي (Michel Arrivé)، أو "الذي لم يوجد بعد رغم حقه في الوجود" بتعبير فرديناند دي سوسور (Ferdinand de Saussure). فهو حقل معرفي لا يزال لين العود، طري الجانب، لم تكتمل أطرافه بعد في البيئة التي أوجدته، ونخبة البحوث والدراسات التي استقرينا تكشف، عمومًا، عن غياب للسيميائيين وحضور للمؤرخين والمنظرين.

## 1. مقدمة

إن الحاجة إلى بناء علم أو نظرية للأدب، لاسيما بعد الأزمة الخانقة التي شاهدتها التيارات النقدية في أواسط الستينيات، دعت اللسانيين ومنظري الأدب والنقاد إلى إجراء مراجعات للأدوات النقدية القائمة التي تطاردها الموضة لدى المنظرين والروتين لدى الممارسين. فالإحساس بالحاجة إلى الموضوعية في التحليل، والعلمية في الطرح، والرغبة في تجديد أنماط التعامل مع اللغة بوجه عام، والنص الأدبي على الخصوص، وإعطاء نفس جديد للنقد في ضوء النظريات اللسانية والفلسفية، كل ذلك أدى إلى ثورة في المناهج وانفتاح الأدب على العلوم. فلم يعد تداخل الاختصاصات والتعاون المكثف الذي يجري في المجالات المعرفية المختلفة، بما في ذلك النقد الأدبي واللسانيات، موضوعًا لنقد واسع النطاق، بل أصبح سمة من سمات البحث العلمي في القرن العشرين [2].

لقد بدت أكثر الفترات ازدهارًا في تاريخ الدراسات النقدية حين تسلّم البنيويون زمام القيادة، حيث أظهروا اختلافًا واضحًا عن عصر ما قبل البنيوية في التنظيم المنهجي للمعرفة، وفي تفسير الحقائق المعروفة على نحو جديد، وفي توسيع مجال اهتماماتها توسيعًا ملحوظًا، وفي انغماس دارسيها في تعاون يتسم بتداخل التخصصات، وفي استعارة إجراءات منهجية جديدة واستثمارها في تحليل ظواهر اللغة والأدب [2]. ورغم الانتقادات الإيجابية والسلبية التي وُجهت إليهم فقد ظل كثير من أفكار البنيويين من المسلمات التي تَقَبَّلَتْها أجيال متعاقبة من اللسانيين والنقاد، وأسسوا عليها مناهج للتحليل ونظريات للأدب (1).

ولعل أبرز الأدوات التحليلية التي تعاظم الاهتمام بنقلها، والتعريف بأصولها ومفاهيمها في الكتابة اللسانية والنقدية العربية "السيميولوجيا" أو "السيميائية"، التي تحتل في المشهد الفكري المعاصر مكانة مميزة [4]. رغم أن صياغة حدودها النظرية، وتحديد أساليبها وإجراءاتها لم تحسم بعد، أكد المناطقة على ضرورة وجودها، وبشر اللسانيون بمستقبل زاهر ينتظرها، نستشف ذلك من خلال قول سوسور عنها في المحاضرات: "...يمكننا أن نتصور علمًا

موضوعه دراسة حياة الإشارات داخل المجتمع؛ فهو يشكل جزءًا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي جزءًا من علم النفس العام، وسأطلق عليه علم العلامات سيميولوجيا (Sémiologie).. وستكون مهمته التعرف على كنه هذه العلامات، وما القوانين التي تحكمها. ولكون هذا العلم لم يظهر إلى الوجود بعد، لم يمكن التكهن بطبيعته وماهيته، ولكن له حق في الوجود، ولن تكون اللسانيات سوى جزء من هذا العلم العام، وستطبق قوانينه التي ستكشف عليها، فهي (أي اللسانيات) تحتل مكانة محددة بين كتلة الحقائق الأنثروبولوجية. وتقع على علماء النفس مسؤولية تحديد الموضع الدقيق لعلم العلامات". أما واجب اللساني كما يصرح سوسور فهو: "تحديد ما يجعل من اللغة نظامًا خاصًا داخل كتلة معطيات علم العلامات" [14]. هذه هي العبارة الواردة في المحاضرات، والشاردة أو الملبسة التي – إن جاز القول – "يَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا ويَخْتَصِمُ"، ورد ذكرها مباشرة بعد تحديد سوسور لمفهوم "اللسان"، وتشبيهه أو حمله على أصناف أخرى من الدلالات على المعاني، اللفظية وغير اللفظية، وذلك بقوله: "اللسان نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، وهو بذلك شبيه بنظام الكتابة، وأبجدية الصم البكم، والطقوس الرمزية، وصيغ المجاملة، والإشارات العسكرية، إلخ، إلا أنه يُعد أهمها (أرقاها) جميعا" [14].

وانطلاقا من هذه الإشارات، التي تحمل الملبس والمضمر، الواردة في عبارة سوسور، علّق علماء اللسان ونقاد الأدب ودارسوه آمالاً عريضة في التعامل مع اللغة والكشف عن هندسة العلامة وأشكال وجود المعنى وانزلاقاته في الأذهان والأعيان... فهل يمكن اعتبار السيميائية نسقًا متكامل الأطراف؟ كيف تم تَلقيها من قبل القارئ العربي؟ بل كيف تتجلى في الكتابة اللسانية والنقدية العربية؟ على شكل فلسفة، أم علم، أم نظرية، أم منهج نقدي، أم تقنية من تقنيات التحليل النفسي، إلخ؟ ما مدى استثمار الكتابة اللسانية والنقدية العربية لهذا الوافد في تجديد القراءة وتوليد الأفكار؟ هل بلغت التجربة العربية النضج الذي حققته الكتابة الغربية إجراءً وتنظيرًا؟ وبإيجاز ما البعد الغائب في التجربة السيميائية؟

## 2. مناهج للتحليل ونظريات للأدب [7]

إن التعامل مع النص وبخاصة الأدبي منه، يُعد من أعسر ما يُقدم عليه الدارس من مواضيع. فهو نص خاص ومتفرد، يتميز بالكثافة ووفرة الدلالة، تنحرف فيه اللغة عن المألوف (2). وإن التشويه الجمالي المقصود لمكوناته اللغوية عن المعيار العادي [11]، يجعل تلقيه عملية معقدة، ومن هنا توالت النظريات والمناهج عليه ينسخ بعضها بعضًا. وإنّ التجاوز الحاصل في تاريخ النقد من نظرية إلى أخرى ومن منهج إلى آخر، كما يعتقد بعضهم، لا يشير في الواقع إلى وجود حركة ارتقائية في النمو والتطور، من الأدنى إلى الأعلى؛ إنه مجرد استبدال لممارسة بممارسة أو لنظرية بنظرية أخرى، يُتصور أنها أكثر عطاء وخصوبة من سابقتها.

إنّ حركة الأنساق المتنافسة وإن أدت إلى تزحزح للأفكار، واهتزاز في الوعي الجمعي، تبدو في الواقع مظهرًا موضوعيًا (ترفًا)، ذا حركة دائرية وليست خطية تصاعدية. ولعل انتقال النقد، ونقاد النقد، من الحديث عن المؤلف إلى الاهتمام بالنص، إلى التركيز على القارئ، ثم إلى الدعوة للاهتمام بهذه العناصر مجتمعة، يشير بوضوح إلى هذه الحركة الدائرية. فالمؤلف والنص والقارئ أقطاب مركزية في الخطاب النقدي، تأسست عليها مناهج للتحليل ونظريات للأدب. يُمثل كل ركن منها مرحلة أو سلطة معينة في تاريخ درس الأدب ونقده.

لنبدأ بسلطة المؤلف التي تعكس الثورة الأولى للمناهج والنظريات، وشعارها "الأدب مصنوع يدل على الصانع مثلما تدل سائر المصنوعات على سائر الصانعين" [12]. فالعمل الأدبي، عند القائلين بهذا الاتجاه، مرآة تعكس شخصية الأديب، لا يُفهم أو يحلل إلا من خلال العوامل الذاتية أو الموضوعية التي ساهمت في تكوينه، بل إن كل نص أدبي لا يضع أيدينا على سمات مؤلفه هو نص زائف [10]. ومما تتسم به هذه المقاربة التاريخية للأدب أنها تمنح الذات المبدعة في

بعدها الفردي والاجتماعي مكانة كبيرة، حيث تسعى إلى إبراز أثر الوسط الاجتماعي في الإبداع الأدبي، وفهم العبقريات الفذة في صلتها بروائعها الأدبية. على أن الْتماس النقاد لمختلف الإرشادات عن الأديب، والتسلح بمعرفة دقيقة وموسعة للعصر الذي أسهم في تشكيل عبقريته، ليس القصد منه فهم الشاعر لنفسه كما يقول طه حسين، وإنما فهم الشاعر من حيث هو صورة من صور الجماعة التي يعيش فيها [12].

هذه حلقة في تاريخ درس الأدب ونقده، قامت على الحفظ والرصد التاريخي المستند إلى حياة المبدع وأحداث عصره. ولعل أبرز الأسباب التي حملت المشتغلين بالأدب والنقد إلى الإقلاع عن هذا المنهج، تشابه الدراسات النقدية على مستوى النتائج والتأويلات، والنزعة التفسيرية للأدب لدى أنصاره. فقد ركّزوا على شخصية الأديب، وغالوا في الربط بين بعض أعماله وجزئيات من حياته، وملابسات وضعه الاجتماعي، أما العمل الأدبي، وهو موضوع الأدب، فمعطى ثانوي بالنسبة إليهم [1]. لهذا قام المنهج البنيوي على ضرورة إعادة الاعتبار أو السلطة للنص والنص فقط، وذلك بتخليصه من الزوائد التي طغت عليه. وكانت عبارة "موت المؤلف أو اختفائه" هي شعار ثورة المناهج النقدية الجديدة. " فالنص الأدبي ليس أدبيًا بمعناه أو فحواه، وأنه ليس كذلك من حيث نشأته وما يتدخل فيها من مؤثرات، وإنما هو أدبي بحكم "صياغته"، و"أسلوبه"، و"طريقته"، و"وظيفة اللغة فيه" [12].

وهكذا تمرّد البنيويون (3) على الدراسات الأدبية التقليدية، ووضعوا مشكلة المنهج نصب أعينهم، فلم يكن التفسير هدفهم، بل التوصل إلى فهم الطرائق الأدبية، ووسائل تحقيقها لغايتها [9] أي إرساء قواعد لعلم الأدب، لأن "النقد الأدبي يضع النص في سياق معين، أيًا كان هذا السياق، ويهبه معنى من المعانين وقد يتضمن الحكم عليه، وربما يتضمن أحكام قيمية. وأما "علم الأدب" أو علم الشعر مجازًا فهو يدرس أحوال وشروط ذلك المعنى، والأبنية الشكلية التي تنظم النص من الداخل، وتتيح له أن يكتسب معاني كثيرة" [9]. وهكذا استفاد النقد البنيوي من اللسانيات من زاويتين: الأولى من حيث تطبيقاتها المباشرة على الأدب، مما أدى إلى ظهور الأسلوبية، والثانية هي التطلع إليها باعتبارها المثل الأعلى للعلم المضبوط، الذي يصف أبنية اللغة وتراكيبها دون الحكم عليها [9].

ويبدو النص في سياق الطرح البنيوي كيانًا مستقلًا يتضمن طرائقه الخاصة، ونسيجًا من العلاقات الداخلية المتشابكة، فلا يوجد شيء خارجه (بمعنى رفض التاريخ الأدبي للنص، والمؤثرات غير اللغوية)، ولا يُقدِّم أي معلومة ليست فيه، ولذا لا بد من دراسته دراسة علمية. هذا الهاجس العلمي لدى الجيل الأول من البنيويين أظهر التحليل البنيوي وكأنه الأسلوب الوحيد للاقتراب من النص بالطريقة العلمية، كما أظهر النص وكأنه مادة كيميائية يجب إخضاعها لنظام صارم عند الفحص [5].

إن معاملة النص الأدبي كمادة تجريبية يمكن إخضاعها دائمًا لقوانين أو قواعد عامة تحكم النصوص اللغوية، هي عملية لا تؤدي فحسب إلى تجاهل الذات المتكلمة، والتضحية بمضمون الأثر، وإغفال هوية النص الأدبي وخصوصيته، بل إنها كذلك عملية تسمح بإمكانية أن يكون أي نص أدبي موضوعًا أو مادة تجريبية للنقد وإن كان ضئيل القيمة مادام الهدف لم يعد هو النص في ذاته وإنما التناول أو التأطير المنهجي له [5]. ثم إن النص الأدبي ليس شكلاً مجردًا يعكس ظاهرة منعزلة، ويخاطب قارئًا لازمانيًا (مطلقًا)، بل إنه كما تقول كريستيفا: إبداع يتعدى على النظام وفقًا لطاقة المتحدِّث [9]. فهو ذو طبيعة زمانية، ويخاطب قارئًا يحيا في إطار تاريخي قد يكون مغايرًا لتاريخية النص [9].

هذه بعض الانتقادات التي أدت إلى إعلاء السلطة الثالثة في درس الأدب والنقد، ألا وهي سلطة القارئ الذي شكّل محور الدراسة، وبؤرة اهتمام شتى الاتجاهات التفسيرية [9]. حيث يرفض أنصار هذا التوجه أن يكون النص أحادي أو نهائي المعنى، بل إنه ينفتح على عدد غير متناه من القراءات، ويتحمل عددًا لا يُحصى من التأويلات بفضل ما في خصائصه الصياغية من كثافة خلاقة. فالقراءة هي الوجه الآخر من الكتابة. وإن الوجود الحقيقي للنص يكمن داخل وعي متلقيه. فالقارئ مبدع ثان، يشارك في إنتاجية النص الأدبي منذ اللحظة التي يصبح فيها مكتملًا ومعطى من الرموز

والعلامات [5]، وذلك من خلال الغوص عن الدلالات وتفاعلاتها واختلافاتها المتواصلة. قال بارت: "إن الأثر الأدبي يكون خالدًا ليس لأنه يفرض معنى مفردًا على أناس مختلفين، ولكن لأنه يوحي بمعان متعددة" [6]. وقال أيضًا: "قد يستبد في النصوص الجمع معنى من المعاني بالقارئ، لكن عدد القراءات ليس محدودًا أبدًا، فإمكاناته هي إمكانات اللغة في التعبير لا حصر لها ولا حدّ" [12]. فالنص، في منظور بارت، يتضمن كوكبة من الدوال لا بناء من المدلولات [9].

ويبالغ بعض الدارسين عندما يفهم أن الحداثة وما بعدها تعطي القارئ سلطة مطلقة، "تفتح النص عليه، وتقول له: افعل به ما تشاء، افهمه كما تشاء، أوِّله كما يتراءى لك...أنت منتج لا مستهلك، قد ترى من الدلالات ما لم يره أحد، وقد يخطر لك ما لم يخطر في بال المؤلف..." [10]. فليس كل نص يتضمن مدلولات متعالية، وليست كل قراءة مؤهلة لأن تخلق المعنى، وليس كل تفسير يتصف بالشرعية والقبول [11]. فالنص يتوجه إلى قارئ نموذجي تعوَّد على القراءة. قد لا يكون لديه إلمام بالنظريات النقدية، ولكن يُفترض أن لديه ما يقيه من التعسف في الاستنطاق والاعتباط في التأويل.

وما يلاحَظ على نظرية تعدد القراءة أنها تعين الناقد على التحرر، وتعين القارئ والكاتب أيضًا على إعادة طرح صورة الذات وصورة العالم من حولها. والسؤال الذي يُطرح ههنا: ألا يؤدي تكرار تحليل النصوص نتيجة إنكار معانيها السابقة، أو نتيجة إثبات عدم إمكان فهمها، إلى تفسيرات ارتيابية متضاربة، أو إلى فوضى الدلالة ولا نهائيتها، أو إلى إحداث لون من الرتابة والملل في درس الأدب؟ ألا تصبح التفسيرات النسبية المؤقتة (الظرفية) نهائية ومطلقة في إطارها التاريخي، أي من وجهة نظر العصر الذي لا يسمح بنقضها؟ [9] ومتى يكتمل فهم النص؟ أو متى يكتمل معناه؟

هذه باختصار نبذة موجزة عن السلطات الثلاث التي دارت الدراسات الأدبية في فلكها تجاوزًا وإقصاءً، (سلطة الكاتب، وسلطة النص وسلطة القارئ)، حيث أدت إلى إنجازات ثورية في النظريات والمناهج التي تناوبت على دراسة الأدب (كالمنهج البلاغي، والتاريخي، والنفسي، والاجتماعي، والبنيوي، وما تفرع عنه كالمنهج السيميائي، الذي يعد امتدادًا وتطويرًا طبيعيًا لأفكارها، وتنقيحًا لمفاهيمها التي لم تكن قد تبلورت بعد. فما الجديد الذي أضافه هذا العلم أو المنهج الواعد الذي لم يوجد بعد (أي السيميائية)، والتي ادّعى المروجون لها والمبشرون بها امتلاكها فصل الخطاب؟ (4)

## 3. واقع التجربة السيميائية العربية

ليس من السهل إجراء دراسة تقويمية للكتابة السيميائية العربية التنظيرية والتطبيقية والمترجمة، فالموضوع واسع ومتشعب، ومحاولة عرض كل الأدبيات التي تناولت الجهاز المعرفي للسيميائيات قد يكون ضربًا من العنت [3]، ولكن كما يقال: ما لا يدرك كله لا يترك جله. ولعل أبرز المعايير التي تساعد على تحديد مدى خصوبة المنجز السيميائي العربي، هو اختبار تمثل هذا الحقل العلمي لدى الممارسين، ومقارنة نتائجه على فعل القراءة وتوليد الأفكار، هل يمثل إضافة بالنسبة لنظريات الأدب ومناهج التحليل الأخرى؟ ولكي لا تكون عملية الرصد عملية ذاتية أو عشوائية فقد وقع اختياري على عينة من البحوث المنشورة في المجلد الخامس والثلاثين من مجلة عالم الفكر [13]. وقد دفعني إلى هذا الاختيار أسباب عديدة أجملها في النقاط الآتية:

1- طبيعة العدد المذكور والقيمة العلمية للمجلة، فقد خصصت "عالم الفكر" محور هذا العدد للسيميائيات.
2- نوعية البحوث الواردة فيه، حيث اشتمل على نخبة حديثة ومتنوعة من المقالات المحكمة التي تم انتقاؤها ومكاتبة أصحابها.
3- طبيعة أسماء الباحثين الذين شاركوا في إنجاز هذا العدد، فجلهم من الأسماء البارزة في الكتابة النقدية والسيميائية.

## التعليقات

(1) كالتفكيكية والسيميائية اللتين اعتبرهما بعضهم خطأ، من المناهج المعارضة للبنيوية الأولى. والحقيقة أنهما امتداد وتطوير طبيعي لأفكارها، وتنقيح لكثير من مفاهيمها التي لم تكن قد تبلورت بعد. انظر [9]، ص101.

(2) رغم أن قضية التمييز بين اللغة الأدبية وغير الأدبية شكليًا ووظيفيًا تُعد من أكثر الآراء الخصبة التي ساعدت، نظريًا، على تشكيل الاتجاهات الحديثة في الأسلوبية، فإن بعضهم يعارض هذه الفكرة مبينًا أن ما يسمى الاستخدامات الأدبية للغة لها ما يقابلها في التخاطب اليومي، يظهر ذلك على سبيل المثال في الدعاية والإعلان وسرد النكت والمزاح...انظر [11]، ص595.

(3) يُعد رولان بارت (Roland Barthes) ورومان جاكسون (Roman Jakobson) وتزيفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov) وجيماس (Greimas) وجيرار جينيت (Gérard Genette) من أبرز أعلام النقد الفرنسي، الذين أوصلوا البنيوية إلى ذروتها، باعتبارها منهجًا للتحليل ونظرية للأدب. أما خارج مجال النقد الأدبي فأهم أعلام البنيوية هم كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss)، وميشيل فوكو (Michel Foucault)، وجاك لاكان (Jacques Lacan). انظر [9]، ص101.

(4) انظر الخلاصة التي انتهى إليها كل من: محمد أديوان في [1]، ص 124–125، وسعيد علوش في بحثه القيم [8]، ص16.

## المراجع


[1] أديوان، محمد، النص والمنهج، ط1، دار الأمان، الرباط.

[2] إفيتش، ميلكا، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد مصلوح ووفاء كامل فايد، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، 2000.

[3] بادي، محمد، سيميائيات مدرسة باريس : المكاسب والمشاريع (مقاربة إبيستمولوجية)، مجلة عالم الفكر.

[4] بنكراد، سعيد، السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، الرباط.

[5] توفيق، سعيد، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2002.

[6] حجازي، سمير، النقد الأدبي المعاصر، ط2، دار الكتاب الجامعي، الكويت، 1996.

[7] صاري، محمد، ثورة مناهج أم أزمة مناهج : مكاسب، قضايا، آفاق، مجلة التواصل، جامعة عنابة، العدد 33، السنة 2013.

[8] علوش، سعيد، علاقة النظرية بالمنهج، أعمال الندوة الدولية حول قضايا المنهج في الدراسات اللغوية والأدبية، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، الرياض، 2010.

[9] عناني، محمد، المصطلحات الأدبية الحديثة، ط3، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، القاهرة، 2003.

[10] قصاب، وليد، مقالات في الأدب والنقد، ط1، دار البشائر، دمشق، 2006.

[11] كولنج، ن. ي.، الموسوعة اللغوية، المجلد الثاني، ترجمة، محي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، السعودية، 1421هـ.

[12] الواد، حسين، مناهج الدراسات الأدبية، ط4، منشورات عيون، الدار البيضاء، 1988.

[13] عالم الفكر، المجلد35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس2007.

[14] Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, ENAG/ Editions, 2 ed, 1994.